ملخص
السنن الإلهية
في القرآن الكريم

سنة الاستدراج

الشَيخُ أَحمَدُ الجَوهَرِيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة ٤
أمثلة على السنن ٤
سنة الاستدراج ومعناها وتعبيرات القرآن عنها ٤
مراحل وخطوات في طريق الاستدراج ٥
الواجب على العبد تجاه سنة الاستدراج ٦
أنواع المستدرَجين..... ٧
الحكمة من سنة الاستدراج ٨
مجالات سنة الاستدراج..... ٨
مظاهر الاستدراج ٩
نماذج المستدرَجين وعقوباتهم ٩

مقدمة

إن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سننًا في الكون والتاريخ والتشريع والإنسان، لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحدًا من الخلق.

هذه السن عادات ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الثابتة وقوانينه الحاكمة ونظامه المدبر للمخلوقات وفق علمه وقدرته وإرادته عز وجل.

أمثلة على السنن

وسنن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في خلقه كثيرة، منها سنة التدرج، ومنها سنة التغيير، ومنها سنة المداولة، ومنها سنة التدافع، ومنها سنة النصر، ومنها سنة الاستدراج.

وأريد أن أفصّل في هذه السنة الأخيرة فإننا بحاجة إلى معرفتها والوقوف عليها لنعرف حقيقتها والحكمة منها ومجالاتها ومظاهرها، ونقف على بعض نماذجها.

سنة الاستدراج ومعناها وتعبيرات القرآن عنها

يعبر الشرع الكريم عن سنة الاستدراج تارة بلفظ الاستدراج هذا كما في قوله تعالى: **{والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}**، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه له استدراج"**.

وتارة بلفظ **الإملاء**، كما في قوله تعالى: **{وأملي لهم إن كيدي متين}**، وفي الحديث أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **"إن الله عزوجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته"**.

وتارة بلفظ **الإمهال**، كما في قوله تعالى: **{فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا}**.

وتارة بلفظ **الكيد**، ومنه قوله تعالى: **{إنهم يكيدون كيدًا و أكيد كيدًا}**.

وتارة بلفظ **المكر**، ومنه قوله تعالى: **{ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}**.

ومن هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نعرف معنى سنة الاستدراج.

وهو أن الله تعالى يعطي الكافر والعاصي فرصة ليتوب ويرجع فإذا لم يفعل العبد شدّد عليه الأمور ليأتي به من طريق الابتلاء وهذا من إملائه وإمهاله له، فإذا لم يفعل وسع عليه وأعطاه ونعمه وأغرقه في الملذات، وهذا من كيده ومكره واستدراجه له.

ولنتأمل مرة ثانية هذا الحديث الشريف: **"إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه له استدراج"**.

ثم نزع صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الآية: **{فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}**.

مراحل وخطوات في طريق الاستدراج

أنزل الله عَزَّوَجَلَّ شرعه، المبين في كتابه وفي سنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيه أخبار يجب تصديقها، وفيه أوامر يجب العمل بها، وفيه نواه يجب اجتنابها، فمن قام بذلك سعد ومن أعرض عنه خاب وخسر.

وعادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذا المعرض أن يذكره ويعظه ليتوب بما فيه من فطرة وعقل وبما يبعثه إليه من رسل ودعاة وهداة وبما معه من كتب وآيات.

فإن فعل العبد تاب الله عليه وأسعده، وإن استمر على إعراضه سلط الله تعالى عليه بعض الضر يحذره بذلك عقابه وبأسه، فإن استمر والى عليه نعمه وأنساه شكره فيزداد الكافر كفرًا ويزداد العاصي ضلالًا فهنالك يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

وتأمل قول الله جَلَّ جَلَالُهُ - يُبين هذه المراحل -: **{وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون}**. وفي هذا عبرة لمن يعتبر بحالهم ويتعظ بموقفهم، فلا يصنع صنيعهم.

الواجب على العبد تجاه سنة الاستدراج

إن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عبودية مع كل حال من الأحوال: **شكر عند النعمة وصبر عند النقمة**، فإذا فعل الإنسان ذلك كان له خير الدنيا والآخرة.

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **{ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}**، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له"**.

فحال المسلم إذا نزل به البلاء الصبر، ومع الصبر رجاء ودعاء ومسكنة وتضرع ويرق قلبه وتنتهي جوارحه عن المعاصي فإنَّ ترْك ذلك يدخله في دائرة الاستدراج: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، والمبلس: الباهت الحزين اليائس من الخير.

وهذا الإنعام على سبيل الاستدراج والإهانة غير الإنعام على سبيل العطاء والكرامة كما قال الله تعالى في أهل الإيمان والتقوى: {ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}.

أنواع المستدرَجين

يستدرج الله الكفرة والعصاة بنعمه، ويستدرج الأمم ويستدرج الأفراد.

يستدرج الأفراد كما قال تعالى: كما قال تعالى: {فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون. قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين. أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون}.

ويستدرج الأمم كما قال تعالى: {كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها. ولا يخاف عقباها}. فالاستدراج سنة من سنن الله تعالى في عباده أممًا وأفرادًا.

الحكمة من سنة الاستدراج

سنة الاستدراج من ورائها حِكَم عظيمة.

فمنها: أن يرد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده إلى التوبة كما قال سبحانه: **{أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون}** فينبغي أن يخلص العبد التوبة والطاعة لله وينتهي عن المعصية ليسبغ الله عليه النعم ويدفع عنه النقم.

ومنها: الزيادة في الإثم والجرم والفجور والكفر، كما قال سبحانه: **{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين}** استدراج يعقبه أشد العذاب وأعظم النكال شأن إبليس: أنظره الله ليزداد إثمًا وليبتليه ويبتلي به.

فالاستدراج نوعان: استدراج منه توبة وإفاقة يذكر الله به عبادة، واستدراج لا توبة منه ولا إفاقة يأخذ الله أصحابه في ضلالهم، نعوذ بالله منهما.

مجالات سنة الاستدراج

ومجالات الاستدراج كثيرة، حيث يستدرج الله تعالى:

- **الكافرين**، قال تعالى: **{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين}.**
- **والمنافقين**، قال تعالى: **{يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون}.**
- **والظالمين**، قال تعالى: **{وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير}.**

- **والفاسقين والعاصين**، قال تعالى: {أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون}.

مظاهر الاستدراج

مظاهر الاستدراج كثيرة.

- فمنها: **أن يفتح الله تعالى على العاصي صنوف النعم**، كما قال تعالى: {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون}.
- ومنها: **الإطالة في العمر**، كما قال تعالى: {بل متعنا هؤلاء و آباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطر افها أفهم الغالبون}.
- ومنها: **تأخير العقاب**، كما قال تعالى: {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا}.

نماذج المستدرَجين وعقوباتهم

ذكر لنا القرآن الكريم نماذج كثيرة لمن جرت عليهم سنة الاستدراج، من الأمم ومن الأفراد، ممن أراد الله بهم التوبة فتابوا ومن أراد إهلاكهم فهلكوا، ومن هذه النماذج - على الترتيب -:

قوم يونس وقوم فرعون، وصاحب الجنتين، وقارون.

- فإن **قوم يونس** آمنوا من كفرهم فكشف الله عنهم العذاب، كما قال سبحانه وتعالى: **{فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين}.**
- **وقوم فرعون** ظلوا في كفرهم إلى أن حاق بهم العذاب: **{كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين}.**
- **وصاحب الجنتين** وفقه الله تعالى للتوبة بعدما أهلك الله جنتيه: **{وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبًا}.**
- **وقارون** ظل في غيه إلى أن هلك، قال تعالى: **{فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون}.**

<u>وهكذا يتنوع المستدرَجون، وتتنوع عقوبات الله فيهم في الدنيا والآخرة.</u>

من أخذ مفاجئ: **{حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة}**، وإغراق، وخسف، وتدمير أموال وغير ذلك في الدنيا: **{وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}.**

ومن عذاب أليم ونكال شديد في الآخرة: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار}.